

دور السينما الوثائقية في تشكيل صورة المهاجر لدى الرأي العام الدولي: دراسة تحليلية سيميولوجية للفلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" على قناة الجزيرة الفضائية

The Role of Documentary Cinema in Shaping the Immigrant's Image in International Public Opinion: An Analytical Semiological Study of the Documentary Film "The Bitter Journey of Asylum" on Al-Jazeera Satellite Channel

د/ سهام بدبودي*

¹ جامعة باجي مختار عنابة، الجزائر، bedboudisihem@yahoo.fr

تاريخ النشر: 2024/01/25

تاريخ القبول: 2023/08/19

تاريخ الاستلام: 2023/04/17

ملخص:

هدفت هذه الدراسة الكيفية للكشف عن دور السينما الوثائقية في تشكيل صورة المهاجر لدى الرأي العام العالمي؛ من خلال القيام بتحليل سيميولوجي للفلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" الذي أنتجته قناة الجزيرة الفضائية القطرية. وقد اعتمدت هذه الدراسة على المنهج السيميولوجي حيث يُسلط الفلم محل التحليل الضوء على الأخطار والصعوبات التي يُعاني منها الشباب اللّاجيء في رحلة عبورهم نحو البلدان الأوروبية مشيا على الأقدام. وقد خلّصت الدراسة إلى جُملة من النتائج التي تُعبّر عن الصورة التي أظهر بها الفيلم الوثائقي المهاجرين الشباب وهي: أنّ فكرة الهجرة واللّجوء أصبحت تُساور أذهان الأطفال والشباب اليافعين الذين لم يكملوا حتى دراستهم وفي أعمار جدّ مبكرة، حيث يُغامر هؤلاء الشباب بحياتهم ويهربون من بلدانهم المضطهدة والفقيرة نحو الدول الأوروبية بحثا عن الأمن والعمل وظروف الحياة الحسنة.

كلمات مفتاحية: السينما الوثائقية، الصورة الذهنية، المهاجر، الرأي العام الدولي، السيميولوجيا.

Abstract:

This qualitative study aimed to reveal the role of documentary cinema in shaping the image of the immigrant in international public opinion. By conducting a semiological analysis of the documentary film "The Bitter Journey of Refugee" produced by the Qatari satellite channel Al-Jazeera. This study relied on the semiological approach, where the film in question sheds light on the dangers and difficulties that refugee youth suffer from in their crossing journey to European countries on foot. The study concluded a number of results that express the image in which the documentary film showed young immigrants, namely: The idea of immigration and asylum has come to haunt the minds of young children and youth who have not even completed their studies and at a very early age, as these young people risk their lives and flee from their oppressed and poor countries towards European countries in search of security, work and good living conditions.

Keywords: Documentary cinema; the mental image; the immigrant; international public opinion; semiology.

bedboudisihem@yahoo.fr

* د/ سهام بدبودي

مقدمة

تهدف الأفلام الوثائقية إلى صُنع الخبرة البشرية، حيث تُسافر عبر حدود الزمان، وتجعل الموضوع المُتناول بقصته وشخصياته وأماكنه الحقيقية صالحا للعرض في أيّ وقت. هذا وتتطلب صناعة الوثائقيات التنقل وملاحظة الواقع، ثمّ انتقاء وترتيب العناصر حسب رؤية وأهداف مُعيّنة يُحددها المخرج أو القائم على الإعداد، وهذا ضمن تفاعل مرّن مع العالم الحقيقي، والذي يستثمر المتغيّرات بذكاء بهدف خلق تأثير ما لدى الجمهور المُشاهد والرأي العام عموما.

وتُسلّط الوثائقيات الضوء على ظواهر ومواضيع مختلفة وراهنّة تشغل الرأي العام العالمي، كظاهرة الهجرة غير الشرعية أو اللّجوء الذي يقوم به الشباب العربي خصوصا نحو الدول الاوروبية بحثا عن مستقبل أفضل.

إشكالية الدراسة:

تُعتبر السينما فناً جماهيريا رائجا، سُرعان ما ساهم أسلوبه المميّز في بلورته وتطوّره بشكل كبير لما يمتلكه من تقنيات سمعية بصرية قادرة على التأثير في المُشاهد والاستيلاء على عقله، فكانت السينما ولا تزال نافذة على العالم بأسره، فتثنائية الصورة والصوت التي تبني الفيلم السينمائي تُشكّل أداة من أهمّ الأدوات الفكرية في عصرنا الحالي من ناحية الشكل والمضمون، والتي باتت السمة المميزة في السينما. إضافة للتكنولوجيا والتقنيات الحديثة التي لعبت دورا مهما في جعل السينما تصل لمختلف النقاط عبر العالم، لتتجاوز بذلك الحدود المكانية والزمانية عبر القارات والدول لتخترق حدودها الثقافية وتبلغ في المقابل ثقافتها المحلية. (شريف، 2022، صفحة 13)

ويُعدّ الفلم الوثائقي أحد أهمّ أنواع الأفلام التي لها مساس مع جوانب عديدة من حياة الانسان وواقعه المعاش، لأنّ فلسفة الفلم الوثائقي تعتمد أساسا على الواقع واستنطاق حقائقه، أي عملية كشف الواقع للوصول إلى أعماقه غير المرئية بشكل مباشر، من خلال معالجة العديد من المشاكل الاجتماعية والسياسية والاقتصادية التي تعاني منها المجتمعات الانسانية. فعملية إبراز المسببات الحقيقية للمشاكل وطبيعة الأماكن الحقيقية التي اشتملت على الأفعال الواقعية بكل ما تحمله من بساطة وتعقيد، سواء من خلال النقل المباشر لها، أو إعادة تمثيل الحدث، أي بناء الوثيقة بظروفها الموضوعية القياسية. (السلوم، 2012، صفحة 11)

وتتنافس الافلام الوثائقية الأفلام الروائية من حيث الاهتمام والمتعة، فضلا عن المعرفة الحقيقية، وأصبح لها اهتمام واسع من المشاهدين في مختلف أنحاء العالم، وقد أصبحت نسبة مشاهدتها على شاشات التلفاز

متعاطمة، بدليل أنّ هناك قنوات فضائية متخصصة في إنتاج الأفلام الوثائقية وعرضها على غرار قناة الجزيرة الوثائقية القطرية.

ويجري تصنيع الصورة النمطية في الوسائل الإعلامية بطرق متعددة مخطط لها بهدف اختزال وتبسيط مغل للصورة العامة لشخص، أو جماعة، أو فئة اجتماعية، أو شعب، بحيث تختزل في مجموعة قليلة من السمات، تستدعي ردود أفعال معينة من الجمهور. وخلال عملية القبولية والتنميط وخطورتها لأنه لا مجال للأفراد لاختيار سمات أية صورة نمطية أو التحقق منها من خلال الخبرة الشخصية، لأن وسائل الإعلام أصبحت هي المصدر الرئيسي للكثير من أفكارنا وتصوراتنا، عن الدول والشعوب والثقافات والديانات.

وتستخدم الصورة النمطية من ضمن الأساليب التي تؤثر بها وسائل الاعلام في صياغة الواقع الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي لنا كجمهور. ويُقصد بالواقع هنا ذلك الجزء الذي تعتمد تلك الوسائل أن تعرضه علينا، أو تنشره لنا عن الأوضاع المختلفة للمجتمع، بحيث يبدو وكأنه ممثل للواقع ومُعبر عن الحقيقة. وبما أنّ الرأي العام الدولي عبارة عن مجموعة الاتجاهات التي تعكس توافقا بين أكثر دول العالم تجاه قضايا معينة؛ بحيث تهم هذه القضايا تلك الدول على اختلافها وأبرز مثال لذلك هو الرأي العام العالمي تجاه قضايا مُعيّنة مثل الإرهاب والإدمان وعمالة الأطفال والهجرة غير الشرعية وقضايا اللّاجئين...إلخ. وقد ساهمت وسائل الاتصال الجماهيرية بما تنشره من أخبار وبما تمتلكه من تكنولوجيا في نقل المعلومات والأخبار والصور بين مختلف دول العالم . (الدليمي، 2019، صفحة 230)

فلم يعد الاهتمام بقضايا الهجرة والمهاجرين مقصورا على المستوى الوطني أو الاقليمي فحسب، بل تزايد هذا الاهتمام على المستوى الدولي في العقود الأخيرة، ولا سيما إزاء ما يتعلق بحقوق المهاجرين وواجباتهم ومشكلات اندماجهم في مجتمعات الهجرة، والهجرة غير الشرعية، وغير ذلك من القضايا. وقد ذهب المدير العام لمنظمة الهجرة الدولية إلى حد القول: (إنّ القرن الحادي والعشرين سيكون قرن الهجرة). (مرسي، 2018، صفحة 07)

ومن هذا المنطلق تأتي دراستنا لتعالج بالتحليل السيميولوجي مضمون الفيلم الوثائقي "رحلة اللّجوء المر"، وهو من أبرز الوثائقيات التي أنتجتها قناة الجزيرة سنة 2021 حول ظاهرة اللّاجئين، حيث تُحاول الدراسة وصف وشرح ما تمّ عرضه في هذا الفيلم سواء كان صريحا أو ضمنيا حول صورة المهاجرين الشباب في محاولتهم اللّجوء نحو الدول الأوروبية مشيا على الأقدام؛ وهروبا من الظروف المأساوية لبلدانهم الأصلية. ومنه نطرح السؤال الرئيسي التالي: كيف تجلّت صورة الشباب المهاجر من خلال الفلم الوثائقي "رحلة اللّجوء المر"؟

1. مفاهيم الدراسة:

1.1 السينما الوثائقية:

هي جنس سينمائي أو تلفزيوني يعتمد على توثيق وتسجيل وعرض الواقع دون تدخل أو تزيف، وهو ما يُميّزه عن الفيلم الروائي الذي يملك صانعه كل الصلاحية لنسج أحداثه الواقعية منها والخيالية حسب رؤيته، فالفلم الوثائقي يهدف إلى رصد الواقع عبر معالجة خلاقية تسمح بهامش من الإبداع دون الاكتفاء بالعرض المباشر للواقع، لنصل إلى التعريف الأكثر تداولاً للفيلم الوثائقي وهو "المعالجة الخلاقية للواقع". ويُعالج الفيلم الوثائقي كلّ أشكال المواضيع الحياتية والوقائع (العلمية، التاريخية، الطبيعية... الخ)، سواء الحالية أو الماضية أو حتى المستقبلية، ويكون ذلك بشكل حيادي وموضوعي يعتمد فيه صانعه على مواد ووثائق وأبحاث موثوقة المصدر . (أبو الحسن، 2015، صفحة 29)

وفي تعريف آخر؛ الفيلم الوثائقي هو فن من فنون الاتصال الجماهيري، ويُعدّ وسيطاً في نقل المعارف والتجارب والخبرات للجمهور، بالإضافة إلى تقديم الوقائع والحقائق عن موضوعات جدلية، وتؤدي الأفلام الوثائقية دوراً في تشكيل المعرفة العالمية للتحديات والوقائع الدولية. (غرابية، 2019، صفحة 18)

هو شكل متميز من النتاج السينمائي، يعتمد بشكل أساسي على العلاقة بين صانع الفيلم والواقع الحقيقي من خلال رؤيته وتحليله للواقع باعتماده شكلاً فنياً في تناوله لهذا الواقع. ويُعرفها رائد السينما الوثائقية جربرسون بأنه معالجة الأحداث الواقعية الجارية بأسلوب فيه خلق فني. بينما تُعرّفه كولمان بأنه: نتاج عملية انتقاء يختار فيها صانع العمل صوراً من واقع الحياة ويلجأ في بعض الأحيان إلى إعادة صياغته. (السلوم، 2012، صفحة 13)

وعرّفت الموسوعة البريطانية الجديدة **The Encyclopedia Britannica** الفلم الوثائقي بأنه: "نوع من الأفلام السينمائية غير الروائية، بمعنى أنّه لا يتضمن قصة أو خيالاً، وإنّما يتخذ مادته السينمائية من واقع الحياة، فيصوّر هذا الواقع ويُفسّر حقائقه المادية أو يُعيد تكوين هذا الواقع وتعديله بشكل يُعبّر عن الحقيقة الواقعية هادفاً إلى تحقيق غرض تعليمي أو غرض ترفيهي. (شريف، 2022، صفحة 36)

تعريف الاتحاد الدولي للسينما الوثائقية هو كافة أساليب التسجيل على فيلم لأيّ مظهر للحقيقة يتمّ عرضه بوسائل التصوير المباشر، أو بإعادة بنائه بصدق، وذلك لحفز المشاهد إلى عمل شيء أو توسيع مدارك المعرفة والفهم الإنساني، أو وضع حلول واقعية لمختلف مشاكل الاقتصاد أو الثقافة أو العلاقات الإنسانية. (الداود، 2019، ص 37)

2.1 المهاجر:

يُقصد بالهجرة عموماً ترك الإنسان لوطنه أو مكان إقامته المعتادة والتوجه نحو منطقة أخرى بصورة قسرية أو اختيارية، سواء أكانت المنطقة داخل الحدود السياسية لدولة ما أم خارجها، وبنية الاستقرار فيها بهدف التوصل إلى تحسين حالته الاقتصادية أو الاجتماعية أو الثقافية أو البيئية أو التعليمية... إلخ، إذا لا يُمكن إسباغ صفة المهاجر على شخص ما إلا إذا صاحب الانتقال نية الاستقرار في الإقليم الذي توجه إليه وحدث تغيير في بلد الإقامة المعتادة وهذا ما أكدته المنظمة الدولية للهجرة، حيث أنها عرّفت الهجرة بأنها حركة الأفراد من بلد إلى آخر والإقامة فيه بسبب العمل أو الاضطراب السياسي . (سعيد، 2018، صفحة 159)

إنّ مصطلح الهجرة في اللّغة العربية يُقابل مصطلحات ثلاثة مجتمعة في اللّغة الانجليزية، فهناك مصطلح (Migration) الذي يُشير إلى عملية الانتقال أو الحركة المستهدفة للهجرة، في حين يُشير مصطلح (Emigration) إلى هذه الحركة في علاقتها بالوطن الأصلي، أي أنّه يُشير إلى حركة الهجرة المغادرة أيّ النقلة إلى الخارج، أمّا مصطلح (Immigration) فإنّه يُشير إلى دخول المهاجرين وإقامتهم بالفعل في موطن الاستقبال. (غانم، 2002، صفحة 15)

وهناك تمييز بين المهاجرين "الطوعيين" و"القسريين"، وهؤلاء هم الأشخاص الذين اجبروا على مغادرة بلادهم بسبب النزاعات أو الاضطهاد، أو لأسباب بيئية مثل الجفاف أو المجاعة، وعادة ما يُوصف هؤلاء الأشخاص بأنهم لاجئون. وثمة تمييز ثان، غالباً ما يكون بين الأشخاص الذين يرتحلون لأسباب سياسية أو اقتصادية، وعادة ما يكون النوع الأوّل من الذين اجبروا على مغادرة بلدانهم بسبب الاضطهاد السياسي أو النزاعات. بينما يوصف النوع الثاني بالعمال المهاجرين، أي الأشخاص الذين يرتحلون بحثاً عن العمل أو فرص وظروف عمل أفضل. وهناك أيضاً أشخاص يرتحلون لأسباب اجتماعية وتضمّ هذه الفئة في المعتاد النساء وأطفالهن الذين يرتحلون للانضمام إلى الأزواج الذين وجدوا عملاً في الخارج، من خلال عملية لمّ شمل الأسرة. والفرق الأخير هو بين المهاجرين الشرعيين وغير الشرعيين (أو غير النظاميين)، حيث يُغطي مفهوم المهاجرين غير النظاميين بالأساس المهاجرين الذين يدخلون بلداً إمّا من دون وثائق وإمّا بوثائق مزورة، أو يدخلون بشكل قانوني ولكنهم بعد ذلك يبقون بعد انتهاء صلاحية التأشيرة أو تصريح العمل. (كوسر، 2021، صفحة 20)

3.1 الصورة الذهنية:

هي تمثل عقلي مجرد لموضوع فئة معينة من الموضوعات، وعلى الرغم من أن الصور الذهنية تقوم على الإدراكات السابقة فهي لا تشمل انعكاسات بسيطة، والمقصود بذلك أنه يحدث في بعض الأحيان تركيز على

جوانب معينة من هذه الإدراكات، واستبعاد أو نسيان جوانب أخرى، وإعادة تفسير جوانب ثالثة عند تنظيم الصورة الذهنية أو تكوينها، على أنه ليس ضرورياً أن تقوم الصورة الذهنية على الإدراك المباشر للمعلومات، حيث تتأثر بالخيال. كما أنها تكون مسموعة، أو مرئية، أو ملموسة، أو لفظية، أو جامعة لأكثر من جانب، وبغض النظر عن نموذج الصورة الذهنية، فإن اللغة لها أهمية خاصة في تركيبها، لأنها تشكل الإدراكات الأصلية التي قامت عليها، كما أنها توفر وسائل نذكرها. (زغلولة، 1994، صفحة 19)

ويرى **كينث بلدنج** أنّ الصورة الذهنية تتكون من تفاعل معرفة الإنسان بعدة عوامل مثل، المكان الذي يحيا فيه الفرد، موقعه من العالم الخارجي، العلاقات الشخصية وروابط الأسرة والجيران والأصدقاء المحطين به، والزمان والمعلومات التاريخية والاجتماعية التي يحصل عليها. (العبد، 2011، صفحة 229)

بينما يعرفها **علي عجوة** بأنها: الناتج النهائي للانطباعات الذاتية التي تتكون عند الأفراد، أو الجماعات إزاء شخص معين أو نظام معين، أو شعب أو جنس بعينه، أو منشأة، أو مؤسسة، أو منظمة محلية، أو مهنة معينة، أو أي شيء آخر يمكن أن يكون له تأثير على حياة الإنسان. وتتكون هذه الانطباعات من خلال التجارب المباشرة وغير المباشرة، وترتبط هذه التجارب بعواطف الأفراد واتجاهاتهم بغض النظر عن صحة المعلومات التي تتضمنها خلاصة هذه التجارب. فهي تمثل بالنسبة لأصحابه واقعا صادقا ينظرون من خلاله إلى ما حولهم ويفهمونه أو يقدرونه على أساسها. (عجوة، 1993، صفحة 04)

4.1 الرأي العام الدولي:

هي الاتجاهات التي تُسيطر على أكثر من مجتمع واحد أو التي تعكس توافقاً في المواقف بين أكثر من وحدة سياسية واحدة، وقد أصبح هذا الرأي سمة من سمات المجتمع الدولي المعاصر، وهو الرأي الذي يسود غالبية شعوب العالم في فترة معينة نحو قضية مُعيّنة، يحدث حولها الجدل وتمس مصالح الشعوب أو قيمها. (ابن عوف، 2016، صفحة 39)

ويُعرّف أيضاً على أنه الرأي السائد بين أغلبية شعوب العالم إزاء مواضيع ومسائل تهتمّ شعوب العالم ككل، من مثل: نزع السلاح النووي أو الحرب الذرية وغيرها من القضايا ذات البعد العالمي والتي تخصّ المجتمع الدولي، والرأي العام الدولي هو ليس جمع الآراء العامة في البلدان المختلفة، فضلاً عن كونه لا يُمثل رأي الحكومات وحدها وإنما هو رأي المواطنين في بلدان العالم المختلفة أيضاً. ومن أهمّ شروطه أن تكون القضية ذات بُعد دولي وأن تعرض بوضوح كبير بجوانبها السلبية والإيجابية. (المناوي، 2014، صفحة 74)

عنوان المقال: دور السينما الوثائقية في تشكيل صورة المهاجر لدى الرأي العام الدولي: دراسة تحليلية سيميولوجية للفلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" على قناة الجزيرة

ومن أمثلة الرأي العام العالمي: رأي العرب والمسلمين تجاه القضية الفلسطينية أو موقفهم تجاه الهيمنة الغربية السياسية والفكرية على العالم الإسلامي، أو موقفهم من الرسوم أو الأفلام المسيئة للنبي (ص) التي انتشرت في وسائل إعلام أوروبا والولايات المتحدة في السنوات القليلة الماضية. (البشر، 2014، صفحة 26) وزادت أهمية الرأي العام العالمي بعد انتشار وسائل الاتصال الحديثة والبث المباشر بالأقمار الصناعية والدعاية المبتكرة التي لجأت إليها الدول المتحاربة بين الحربين العالميتين اللتين شهدهما القرن العشرين. لذلك، كلما زاد عدد الشعوب المتحررة من نير الاستعمار؛ ازداد الرأي العام قوة وتأثيرا وفعالية. (عامر، 2012، صفحة 58) وللرأي العام العالمي أثره البالغ في توجيه الأمم المختلفة وفي حفظ التوازن بين البلدان المتصارعة. (عابد، 2014، صفحة 57)

2. منهجية الدراسة

1.2 منهج الدراسة:

تم الاعتماد في دراستنا هذه على منهج التحليل السيميولوجي والذي يُعدّ منهجا يقوم على الوصف والتحليل، بل يتعدى ذلك ليشمل المعنى العميق من خلال الكشف عن الدلالات اللغوية وغير اللغوية، ومن ثمّ فالهدف من دراسة المحتوى سيميولوجيا هو البحث عن المعنى والدلالة واستخلاص البنية المولدة للمحتوى منطقيا ودلاليا. (السيد، 2002، صفحة 17)

2.2 عينة الدراسة:

عمدنا على استخدام العينة القصدية وذلك بعد محاولة الاطلاع على رصيد الأفلام الوثائقية التي تتحدث عن ظاهرة الهجرة، فوقع اختيارنا على الفيلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" الذي يُعتبر من أهمّ الوثائقيات التي أنتجتها قناة الجزيرة الفضائية .

3. التحليل السيميولوجي للفلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر"

1.3 بطاقة فنية للفلم محل التحليل:

- عنوان الفلم: رحلة اللجوء المر.
- جنسية الفلم: عربية (قطر).
- المدّة الزمنية للفلم: 47 دقيقة و 27 ثانية.
- نوع الفلم: وثائقي (تحقيق)
- تاريخ العرض على قناة الجزيرة الفضائية: 26 نوفمبر 2021.

عنوان المقال: دور السينما الوثائقية في تشكيل صورة المهاجر لدى الرأي العام الدولي: دراسة تحليلية سيميولوجية للفلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" على قناة الجزيرة

- إنتاج: قناة الجزيرة الفضائية.

- الرابط على يوتيوب: <https://www.youtube.com/watch?v=imDyUs1GHL4>



الفوتوغرام رقم (1) عنوان الفلم الوثائقي

2.3 ملخص الفلم:

يروى الفلم الوثائقي قصة مجموعة من الشباب والمراهقين اليافعين الذين فرّوا من بلدانهم الأصلية التي هدمتها الحروب، أملا في العبور إلى دول أوروبية بحثا عن حياة أفضل، لكنهم يقعون خلال رحلتهم في شتى أنواع المخاطر والعقبات. ويوثق الفيلم الذي بثته قناة الجزيرة في 2021/11/26، رحلة هؤلاء الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 12 و15 سنة، وقد اضطرتهم الظروف المأساوية في بلدانهم مثل سوريا وأفغانستان ودارفور بالسودان إلى المخاطرة بحياتهم من أجل الوصول إلى بلدان أوروبا، حيث يعتقدون أنهم سيجدون الأمان والعمل. ويظهر من خلال الفيلم الوثائقي كيف أنّ رحلات هؤلاء التي غالبا ما تستغرق شهورا أو حتى سنوات كانت محفوفة بالمخاطر، عبر كلّ حدود أوروبا كاليونان، صربيا، البوسنة والهرسك، إيطاليا وفرنسا.

ورغم كلّ الصعاب التي واجهتهم في "رحلة اللجوء المر" يتمسك من تحدثوا للفيلم الوثائقي -الذي تمّ تصويره على مدى ثلاث سنوات بهواتف المراهقين- عن أملهم في تحقيق الحلم الذي يُراودهم.

3.3 التحليل التعييني والتضميني للمقاطع المختارة من الفلم الوثائقي:

المقطع الأول: مقدمة

يبتدئ الفلم الوثائقي بعرض لصور أقدام متعبة تسير مطولا على الأرض مع التركيز على إبراز صوت وقع الأقدام وهي تسير دلالة على هدوء المكان، ثمّ نرى مشاهد مختلفة لأقدام أشخاص مختلفين يسرون

عنوان المقال: دور السينما الوثائقية في تشكيل صورة المهاجر لدى الرأي العام الدولي: دراسة تحليلية سيميولوجية للفلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" على قناة الجزيرة

منفردين، تارة ليلا وتارة نهارا دلالة على طول واستمرار مدة السير، سيرون تارة على العشب وتارة أخرى على الصخور وصور أخرى لأقدام تسير على أرض ثلجية أو سكة حديدية.

ثم تُكتب عبارة (كل يوم يهرب الصبية المراهقون من بلدانهم التي مزقتها الحروب ويُحاولون عبور الحدود إلى أوروبا بحثا عن الأمان) مع محاولة إبراز أصوات الشخص الذي يسير والتي توحى بالإرهاق والتعب. ثم تُكتب عبارة أخرى (هذا الفيلم يوثق رحلاتهم المحفوفة بالمخاطر).

أول عبارة منطوقة نسمعها في الفيلم الوثائقي من أحد الشباب الهاربين يقول فيها (أنت في مهمة إذا أنجزتها تفوز باللعبة) وقد قيلت هذه العبارة مركبة على لقطة بعيدة لدوريات الشرطة الحدودية بمنطقة البوسنة والهرسك. ثم تظهر مشاهد ملتقطة بكاميرا الهاتف المحمول لأحد اللاجئين وهو يصور نفسه مُبتسما ويقول: (أنا الكشاف) حاملا منظارا يُراقب من خلال دوريات الشرطة الحدودية ثم يقول: (سنرى البوليس أو نحن؟ نحن أولاد الحرب)، ثم يقوم نفس الشاب بتصوير سيلفي مع رفقاءه الشباب المهاجرين وعددهم 05 يسألهم بصوت خافت (يا شباب إلى أين؟) فيجيبونه ضاحكين (جرمانيا).

بعدها يتم عرض مشاهد قصيرة مختلفة لأشخاص يمشون ليلا في أجواء ماطرة مع التركيز على تصوير عيونهم الحذرة المترقبة، ثم تُكتب عبارة (إذا أمسكت بكم الشرطة فستنتهي لعبتكم بالكامل) ثم نسمع عبارة من أحد اللاجئين (هي لعبة خطيرة ومن الممكن أن تقضي علينا)، وبعدها تظهر صورة مقربة جدا لأحد الشباب المهاجر يقول: (إذا تسلقت الجبل وسقطت فستخسر اللعبة وتموت، ولكن إذا عبرت ستريح ولذلك يُسمونها اللعبة). ثم تُعرض مشاهد ليلية قصيرة توضح المخاطر التي تعترض هؤلاء الشباب في رحلة اللجوء: الطرق الجبلية الوعرة، السير ليلا في أماكن موحشة معزولة، دوريات الشرطة التي تُراقب المكان. وينتهي المقطع الأول بصورة مُقربة جدا لعيني أحد المهاجرين ويبدو عليها الخوف والترقب والتعب ليواصل سيره بعدها.

المقطع الثاني: قصة صبية سرقت الحروب طفولتهم وأحلامهم.

يبدأ المقطع الثاني بمشهد لأحد الشباب اللاجئ ويُدعى "أس كيه" من أفغانستان وهو يسبح في إحدى شواطئ اليونان، ويدلّ هذا المشهد على وصول الشاب الأفغاني إلى دولة اليونان، ثم نرى مشهدا آخر يتصل من خلاله هاتفيا بأحد أقاربه في أفغانستان ليسأل عن أحوالهم هناك في البيت والعمل، وعن سبب وفاة صديقه حيث يُجيبه المتصل بأنه قتل أثناء اللجوء. ثم يسأله المتصل (متى ستحاول مرة أخرى؟) فيجيبه "أس كيه" (سأحاول الخميس، فقد أرجعوني في المحاولة السابقة)، ثم يسأل عن وجهته هل هي ألمانيا فيجيبه "أس كيه"

عنوان المقال: دور السينما الوثائقية في تشكيل صورة المهاجر لدى الرأي العام الدولي: دراسة تحليلية سيميولوجية للفلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" على قناة الجزيرة

(لا إيطاليا). ثم تظهر خلفية جرافيكية على شكل خريطة توضح المسافة التي قطعها "أس كيه" من أفغانستان نحو اليونان مشيا على الأقدام والتي بلغت 5000 كيلومترا، والمسافة المتبقية من اليونان نحو إيطاليا والمقدرة بـ 1200 كيلومترا.

ثم يتم الانتقال إلى مشهد آخر يوضح مجموعة من اللاجئين في منطقة "سالونيك باليونان" وهم يخضعون لفحوصات طبية على مستوى عيادة طبية متقلة، حيث يظهر أحد اللاجئين وهو يتلقى علاجاً على مستوى قدمه التي تعيقه عن المشي. ويجري حوار بين الطبيبة واللاجئ المصاب حول مدة المشي التي بلغت 04 أيام، وبأن الشرطة قد أمسكتهم وأرجعتهم إلى اليونان. يقول اللاجئ بأنهم كانوا يمشون ليلاً ونهاراً لساعات طويلة دون انقطاع. ثم يقول "أس كيه" (نحن لا نعرف الطريق، وإذا لم نستطع أحدهم مواصلة الطريق معهم فسيتركونه في الجبال في الغابات ولا يهم إن قضاوا أم بقوا أحياء).

ثم يقول: (لدينا الكثير من الأصدقاء الذين يتبعون اللعبة معنا أعمارهم ما بين 12 و 15 عاماً) وتُظهر المشاهد صوراً لهؤلاء الصبية اليافعين الذين يُشاركون في رحلة اللجوء. ثم يقول "أس كيه" (في قريتنا بأفغانستان لا توجد طاقة كهربائية، كنت أشاهد التلفاز عند عمتي، وكنت أستمتع بأحد برامج الرسوم المتحركة ويدعى "دورايمون" لأنّ فيه بابا سحريا يُساعد على الرحيل إلى أي مكان، وأنا بحاجة إلى هذا الباب للذهاب إلى أوروبا بسهولة).



الفوتوغرام رقم (2) صورة سيلفي لمجموعة من شباب لاجئين حقيقيين



الفوتوغرام رقم (3) يوضح صغر سن اللاجئين

المقطع الثالث: لعبة المشي على الأقدام؛ طريق محفوف بالمخاطر.

يبدأ هذا المقطع بعرض عدد من اللقطات التي تدل على مختلف أنواع وطرق اللجوء التي يستخدمها الشباب المهاجر، وتظهر عبارة (الألعاب متنوعة؛ هناك لعبة القطار، لعبة الحاويات، ولعبة المشي على الأقدام)، حيث في كل نوع يتم تصوير أطفال صغار يُمارسون هذه اللعبة أو هذه الأساليب في اللجوء.

ثم ينتقل الفلم إلى شخصية لاجئ آخر أخفق في رحلة لجوئه ويُدعى "مو" وهو لاجئ من إيران عالق في اليونان، يقول: (ذات مرة جرّبت لعبة المشي، أردت الذهاب من مقدونيا إلى صربيا ولكن على الطريق أمسك بي أشخاص مجهولون وسلّبوني كلّ ما أملك وأشبعوني ضربا)

ويروي "آس كيه" وهو لاجئ من أفغانستان كيف بنى هو وأصدقائه أحلامهم، وكيف قرروا المخاطرة بحياتهم من خلال لعبة المشي الطويل لتحقيق هدفهما في الوصول إلى إيطاليا، رغم ما صادفاه من متاعب ومشاكل كثيرة خلال رحلتها.

ومن جهته يروي "جانو" وهو لاجئ من سوريا عالق بين البوسنة والهرسك ومقدونيا، قصته مع اللجوء المر ويقول إنّه هرب رفقة شقيقه من عفرين سوريا بسبب الحرب، وذهبا إلى تركيا واليونان وألبانيا، وأنهما صادفا خلال رحلتها الطويلة مشاكل كبيرة، فلا أكل ولا ماء، فضلا عن أنّ المرور بالجبال والغابات بين البوسنة ومقدونيا جعلهما عرضة لحيوانات مفترسة.

عنوان المقال: دور السينما الوثائقية في تشكيل صورة المهاجر لدى الرأي العام الدولي: دراسة تحليلية سيميولوجية للفلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" على قناة الجزيرة

وبعد أن سرقت الحرب طفولته، قرّر "محمد" اللّاجيء من سوريا، أن يترك دراسته وعائلته ويعبر إلى أوروبا، ويقول إنّ أمله هو أن يستقر هناك ويجلب والدته وأخواته إلى جواره، لأنّ والده توفي منذ سنوات، وذهب "محمد" 14 عاما رفقة آخرين من سوريا إلى البوسنة مشيا على الأقدام، وخلال رحلتهم -كما يقول- انقطع عنهم الأكل والماء ، وساءت أوضاعهم بشدّة .



الفوتوغرام رقم (4) نموذج عن المخاطر التي تعترض اللاجئين في رحلتهم



الفوتوغرام رقم (5) يوضح أحد الشباب اللّاجئ يبكي على ما تعرض له من مخاطر

المقطع الرابع: قصص لا تكتمل.. ومستقبل مجهول.

يبدأ المقطع الأخير بمشاهد للشباب "شيرو" وهو يتجول في شوارع سلوفينيا، ثم يدخل متجرا ليقوم بشراء هاتف جوال جديد، ويؤكد على البائع توفره على **تطبيقي تحديد المواقع والواتس** آب فقط بما أنه لا يملك الكثير من النقود، ويدل هذا المشهد على الأهمية التي ساهمت بها التكنولوجيات الحديثة في التواصل بين المهاجرين؛ وكذا تحديد وجهاتهم وأماكن تواجدهم وسبل التواصل فيما بينهم. ثم تظهر على الصورة خريطة توضح المسافة الطويلة التي قطعها الشاب من البوسنة والهرسك نحو سلوفينيا مروراً بক্রواتيا مشياً على الأقدام. في المشهد الموالي يتمكن "شيرو" من الاتصال هاتفياً بأخيه "جانو" الذي فقده في رحلة اللجوء، يستعلم عن أحواله ويُبّرر له سبب عدم تمكنه من التواصل معه بسبب عدم امتلاكه لهاتف، ثم يتفقان على المغادرة ليلاً باستعمال القطار، وقد نجحوا في دخول مدينة ميلانو وانتهت رحلتهم بالنجاح. حيث يظهر الشاب "جانو" عن وصوله إلى هولندا فرحاً مسروراً ويقول (لم يبق شيء، سأستقر هنا) ثم تكتب عبارة (بعض الصبية وصلو إلى وجهتهم والبعض الآخر مازالوا عالقين على حدود أوروبا) وهذا للدلالة على أنه ليست كل محاولات اللجوء تكلل بالنجاح.

ويروي في هذا المقطع الأخير شباب ومرافقون من أفغانستان ودارفور والعراق، عن قصص مطاردتهم من طرف دوريات شرطة حدود الدول الأوروبية، وهو ما كشفه الشاب العراقي "مصطفى" الذي ظهر بيد مكسورة وهو يبكي على الوضع الذي وصل إليه، وقد تعرض هذا الشاب بعد سنتين للتعذيب وما يزال في البوسنة. ورغم كل الصعاب التي واجهتهم في "رحلة اللجوء المر" يتمسك هؤلاء الشباب بأملهم في تحقيق الحلم الذي يُراودهم في محاولات أخرى.

4. نتائج التحليل السيميولوجي

بعد التحليل السيميولوجي للمقاطع المختارة من الفيلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" توصلنا إلى جملة من النتائج نستعرضها فيما يلي:

- ركّز مُعدّوا هذا الفيلم على استخدام وتوظيف مشاهد من فيديوهات حقيقية قام بتصويرها مجموعة من الشباب المهاجر من دول مختلفة خاصة العربية منها والتي تشهد وضعية عدم استقرار بسبب الحروب، يوثقون من خلالها الظروف والمعاناة التي كابدها في رحلة اللجوء.

عنوان المقال: دور السينما الوثائقية في تشكيل صورة المهاجر لدى الرأي العام الدولي: دراسة تحليلية سيميولوجية للفلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" على قناة الجزيرة

- قدّم الفيلم الوثائقي عدّة قصص منفصلة لبعض الشباب المهاجر، بحيث تحكي كلّ حالة ظروفًا ومعاناة خاصّة، وقد أُريد بذلك التركيز فكرة أنّ هذه الظاهرة لا تقتصر على بلد واحد فحسب، بل هي ظاهرة عامّة موجودة في عدّة بلدان يُعاني شبابها بسبب الحرب أو الفقر.
- ركّز الفيلم الوثائقي على إبراز أنّ ظاهرة اللّجوء لم تُصبح حكرًا على فئة الأشخاص الكبار سنا فقط بل أصبحت محط اهتمام اليافعين والصبية، وذلك من خلال النماذج الحية التي عُرضت من خلال هذا الفيلم والذين تتراوح أعمارهم بين 12 و 15 سنة فقط.
- بالنّسبة للعنوان الذي تمّ اختياره لهذا الفيلم الوثائقي والموسوم بـ "رحلة اللّجوء المر"، فنجد أنّه يحمل عدّة دلالات مرتبطة بمضمون الفلم أيضًا، حيث يُعتبر اللّجوء بالنّسبة لهؤلاء الصبية بمثابة رحلة طويلة وشاقة يقومون بها مشيًا على الأقدام، أو كما يصفونها هم (باللّعبة) التي فيها الرّايح والخاسر، ويخوضون مُغامرة هذه اللّعبة حتى النّهاية دون اكرتاث بمخاطرها، فالمهم لديهم هو تحقيق الهدف وهو اللّجوء للدول الأوروبية ولو كرّروا هذه العملية أكثر من مرّة.
- صوّر الفيلم الوثائقي الظروف القاهرة التي يعيشها الشباب المهاجر والتي اضطرتهم لأخذ قرار الهجرة من خلال شهادات حية لعدد من الحالات كالأفغاني "أس كيه"، الإيراني "مو"، العراقي "مصطفى"، "محمد" و "جانو" من سوريا... الخ، كما تمّ عرض دلالات أيقونية تُبرز كيفية عبورهم والعراقيل التي صادفتهم.
- قام الفيلم الوثائقي بالكشف عن المُعاملة السيئة والغير إنسانية التي يتعرض لها هؤلاء اللّاجؤون الشباب في حال تمّ اكتشاف أمرهم من قبل حرس الحدود أو الشرطة، والتي قد تصل إلى حدّ القتل.
- اعتمد المخرج على توظيف اللّقطات القريبة والقريبة جدا لإبراز ملامح ومشاعر المهاجر والتي تجلّت في نظرات الخوف ولحظات الحسرة والبقاء أحيانا، والتي تُستخدم للتأثير في الجمهور المُشاهد.

خاتمة:

يُعتبر الإنتاج السينمائي الوثائقي وثيقة مرجعية يعتمد عليها في تسجيل الأحداث وتوثيق الواقع الحياتي على مستوى شتى الأصعدة، فالسينما الوثائقية هي رسالة إنسانية مصممة أساسا وفق أهداف معرفية في المقام الأوّل وتأثيرية في المقام الثاني. فينزل الفلم الوثائقي إلى الحياة، يواجه الحقيقة ويُناقش القضايا العامة بمنهج تحليلي وطريقة ممتعة، يُسافر عبر حدود الزمان والمكان ليعرض الموضوع بقصته وشخصياته وأماكنه الحقيقية.

بحيث تُصبح الصورة الفيلمية أكثر صدقا وواقعية بالنسبة للجمهور المتلقي، وبالتالي يتشكل لدى هذا الأخير رأي عام حيال الظواهر والحقائق التي يُعالجها.

وانطلاقا مما سبق؛ عبّر الفيلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" محل الدراسة والتحليل عن الواقع المرير الذي يُعاني منه الشباب المُراهق في رحلة لجوئهم الغير شرعي نحو البلدان الأوروبية هربا من الظروف القاسية والقاهرة التي يعيشونها في بلدانهم الأصلية.

حيث ركّز معدّوا هذا الفيلم على ابراز صورة هؤلاء المهاجرين الشباب بتسليط الضوء على المعاناة والمخاطر التي رافقتهم في رحلتهم هذه والتي لم تُكلّل دائما بالنجاح. من خلال عرض حالات منفصلة لصبية خاضوا غمار هذه الرحلات. وقد مرّر الفيلم للمُشاهد خصوصا والرأي العام الدولي عموما رسائل ضمنية جدّ هامة حول أسباب وظروف ودوافع هذه الظاهرة، وكذا روح التضحية والمغامرة إلى حدّ الموت لهؤلاء الشباب الذي لم يبق لهم سوى هذا الحلّ الأخير لمواصلة حياتهم في ظروف حسنة.

5. قائمة المراجع:

• المؤلفات:

- البشر محمد بن سعود، (2014)، الرأي العام: الأسس ومقاربات الواقع، العبيكان للنشر، السعودية.
- أبو الحسن منال، (2015)، السينما التسجيلية: علم وفن، تدريب وممارسة، دار النشر للجامعات، القاهرة.
- بن عوف حسن أحمد، (2016)، الرأي العام: مفهومه وأساليبه قياسه، أمواج للنشر، عمان.
- الداود إياد، (2019)، فن التقصي: الفيلم الوثائقي التحقيقي، معهد الجزيرة للإعلام.
- الدليمي عبد الرزاق محمود، (2019)، الدعاية والشائعات والرأي العام: رؤية معاصرة، دار اليازوري العلمية للنشر والتوزيع، الأردن.
- روطان فريدة، (2019)، الأمن الجزائري والفضاء الاقليمي: التعامل والتداعيات، مركز الكتاب الأكاديمي، الأردن.
- زغلوله السالم، (1994)، صورة المرأة العربية في الدراما المتلفزة، دار مجدلاوي، الأردن.
- سعيد محمد صباح، (2018)، جريمة تهريب المهاجرين: دراسة مقارنة، المركز العربي للدراسات والبحوث العلمية، القاهرة .

عنوان المقال: دور السينما الوثائقية في تشكيل صورة المهاجر لدى الرأي العام الدولي: دراسة تحليلية سيميولوجية للفلم الوثائقي "رحلة اللجوء المر" على قناة الجزيرة

- السلوم كاظم مرشد، (2012)، سينما الواقع: دراسة تحليلية في السينما الوثائقية، دار أفكار للطباعة والنشر، سورية.
- شريفي آمنة، (2022)، الفلم الوثائقي بين الاحتراف والممارسة، دار اليازوري العلمية، الأردن.
- عابد زهير عبد اللطيف، (2014)، الرأي العام وطرق قياسه، دار اليازوري، الأردن.
- عامر فتحي حسين، (2012)، استطلاعات الرأي العام على الأنترنت، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة.
- العبد عاطف عدلي، (2011)، نظريات الإعلام وتطبيقاتها العربية، دار الفكر العربي، القاهرة.
- عجوة علي، (1993)، العلاقات العامة والصورة الذهنية، عالم الكتب، القاهرة.
- غانم عبد الله عبد الغني، (2002)، المهاجرون دراسة سوسيوانثروبولوجية، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية.
- غرابة هالة حمدي، (2019)، التغطية الاستقصائية لقضايا الواقع المعاصر، العربي للنشر والتوزيع، القاهرة.
- كوسر خالد، (2021)، الهجرة الدولية، مركز أبو ظبي للغة العربية، أبو ظبي.
- مرسي مصطفى عبد العزيز، (2018)، قضايا المهاجرين العرب في أوروبا، مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، الإمارات العربية المتحدة.
- المناوي عدي إبراهيم، (2014)، التيارات السياسية العلمانية وصناعة الرأي العام، دار زهران للنشر، عمان.
- التقارير:
- التقرير العالمي لرصد التعليم، (2019)، الهجرة والنزوح والتعليم: بناء الجسور لا الجدران، منظمة الأمم المتحدة للتربية والعلم والثقافة (UNESCO).